النوبة في المصادر التاريخية القبطية:

النوبة في كتاب "تاريخ البطاركة" المنسوب لساويرس بن المقفع

إبراهيم ساويرس* – أسماء الصايغ**

يمكن تعريف النوبة[1] جغرافيًّا على أنها المنطقة الواقعة إلى الجنوب من أسوان حتى مدينة الدّبة في الجنوب، وهي تقع إلى الغرب من مروي وإلى الجنوب من دنقلة. يبدأ إقليم النوبة عند خط عرض 23 شمالاً. وتقسم النوبة إلى قسمين: القسم الشمالي، وهو الواقع في الحدود السياسية لمصر المعاصرة، ويمتد من شمال وادي حلفا إلى أسوان، ويعرف بـ النوبة السفلى، والقسم الجنوبي، ويمتد من وادي حلفا إلى بلدة الدّبة ويعرف بـ النوبة العليا، ويقع داخل الحدود السياسية المعاصرة لدولة السودان[2].

لم يبد القبط اهتمامًا كبيرًا بتدوين التاريخ بالمعنى الكلاسيكي له، بل كان تدوينهم لتاريخهم له أغراض أخرى تتجاوز فكرة التسلسل الزمني للأحداث[3]، وما وصلنا من مصادر تاريخية قبطية هو في صورته العامة نادر ومتقطع. ويعتمد الباحثان هنا تعريفًا محدودًا للمصادر التاريخية القبطية، هو تلك المصادر التي دوّنها القبط عن أنفسهم، سواء كانت لغة التدوين هي العربية أو القبطية. وقد وصلنا مصادر مكتوبة بالقبطية في صورة شذرات متناثرة ربما كان أقدمها يعود للقرن الخامس[4]. وهناك مصادر أخرى متعددة يمكن الاعتماد عليها في رسم الصورة العامة لتاريخ الأقباط،

---

* باحث دكتوراه – جامعة ليدن (هولندا)
** باحثة ماجستير – معهد الدراسات الأفريقية – جامعة القاهرة

منها أعمال المجامع المسكونية[5]، وتاريخ يوحنا النقيوسي[6]، وتاريخ ابن الراهب[7]، وتاريخ المكين جِرجس ابن العميد[8]، وتاريخ يوساب أسقف فوة[9]، وتاريخ الكنائس والأديرة المنسوب لأبي صالح الأرمني[10]، وغيرها من الأعمال التي تضيف زيادة إلى ما نعرفه عن تاريخ الأقباط بالرغم من كونها مؤلفات يصعب تصنيفها كأعمال تاريخية كسِير بعض الشهداء، وسِير بعض البطاركة التي وصلتنا منفصلة، وغيرها[11].

والعمل الأكثر أهمية عن تاريخ الكنيسة القبطية هو تاريخ البطاركة، وهو تجميع يعود غالبًا إلى القرن الحادي عشر، وقد اشترك عدد كبير من المؤلفين والمحررين في ترجمة وكتابة أجزاء منه[12]. يتميز هذا الكتاب عن غيره من المصادر التاريخية القبطية بأنه يضم تاريخ الأقباط من خلال السِّير الذاتية لبطاركتهم منذ القرن الأول حتى القرن الماضي. وأجزاء من هذا العمل الضخم مترجمة من اليونانية والقبطية، وأجزاء أخرى منه مكتوبة مباشرة بالعربية[13]، أجزاء منه كتبها بعض شهود العيان، مما يعطيه مصداقية لا تتوافر لبقية المصادر التاريخية القبطية. صدرت عن هذا الكتاب دراسات متعددة، دراسات تتناول أحداث مَتْنه ذاتها[14]، ودراسات تتناول مؤلفيه، كما طُبعت منه طبعات عديدة[15]، وتُرجم إلى عدة لغات أوروبية حديثة، كما صدرت له فهارس في كتاب منفصل[16]، ولم يزل يحتاج إلى طبعة نقدية شاملة.

في هذه الورقة يتناول الباحثان صورة النوبة كما رسمها كتاب تاريخ البطاركة فحسب، على أن يأتي هذا البحث كلبنة أولى في سبيل رسم صورة النوبة من خلال كل المصادر القبطية المعروفة في سلسلة أبحاث قادمة بإذن الله. يحاول الباحثان في هذا البحث فهم الرسالة التي أراد مؤلفو كتاب تاريخ البطاركة توصيلها لقرائهم، من خلال رسم صورة معينة لبلاد النوبة، كما سيحاول الباحثان رصد تفاصيل أحداث

بعينها من تلك الواردة في كتاب تاريخ البطاركة في مصادر تاريخية أخرى متى كان ذلك متاحًا، لعله يفيد في تحقيق الأحداث ذاتها.

تبدو أهمية دراسة بلاد النوبة من خلال كتاب تاريخ البطاركة واضحة إذا ما وضع في الاعتبار ندرة ما سجله مؤرخو العصور الوسطى عن النوبة، حيث كانت غالبًا ما تأتي في إشارات عابرة، كذلك يجب أن يذكر أن ما عثر عليه في النوبة من وثائق باللغات الثلاثة: اليونانية والنوبية والقبطية، قليل، وأهميته التاريخية ليست كبيرة؛ لأن الحفائر الأثرية هناك لم تحظ بالاهتمام الكافي[17]. من هنا يحتل كتاب تاريخ البطاركة أهمية كبرى في رسم صورة النوبة في العصور الوسطى.

يرد ذكر النوبة في كتاب تاريخ البطاركة منذ سطوره الأولى، حيث نقرأ ما نصه: "خلفاء الأب البشير، مار مرقس الإنجيلي، المبشر بالإنجيل المقدس، وبشرى السيد المسيح بالمدينة العظمى الإسكندرية، وإقليم مصر، وأقاليم الحبشة والنوبة، والخمس مدن بالمغرب (التي) هي إفريقية، وما معها[18]. كل هذه وقعت بالقرعة في كرازته بإلهام الروح القدس[19]". يتضح هنا أن الكاتب يريد منذ البداية أن يتحدث عن النوبة على أنها جزء من كرازة مارمرقس، وبالتالي فإن خضوعها لكنيسة الإسكندرية أمر لا يدانيه الشك، حيث إن علاقتهما هي علاقة الجزء بالكل. والملاحظ أنّ الكتاب عندما أورد سيرة مرقس البشير منذ مجيئه إلى مصر حتى استشهاده، لم يذكر أبدًا أنه بَشَّر بالمسيح في بلاد النوبة[20].

ويرد ذكر النوبة بعد ذلك في سيرة البطريرك إسحق، الحادي والأربعين في سلسلة البطاركة القبط، والذي تولى الكرسي المرقسي حوالي 690–692م. يبدو أنه في زمن هذا البطريرك قد نشأ خلاف بين ملكي النوبة وأثيوبيا، وأن البطريرك إسحق

قد سعى للصلح فيما بينهما قبل أن تدق طبول الحرب بين المملكتين المسيحيتين، وقد نقل ذلك بعض أهل السوء إلى الوالي عبد العزيز الذي كان على خلاف مع النوبة، وغضب جدًّا من مساعي البطريرك للصلح، وأرسل من يقبض عليه ليقتله. هنا قام الكتّاب بتغيير نص الرسائل التي أرسلها البطريرك لحكام النوبة والحبشة، حتى إذا ما اطلع عليها عبد العزيز لا يجد فيها ما يدين البطريرك، فيطلقه بسلام. نصّ تاريخ البطاركة لا يذكر هنا أن هؤلاء الكُتّاب من القبط، حيث إنه من المعروف أن مهنة الكتابة في مطلع حكم العرب لمصر كانت في يد الأقباط، كما أنه يهمل ذكر أسباب الخلاف بين النوبة والحبشة.

لقد أطلق عبد العزيز البطريرك ليرجع إلى كرسيه في الإسكندرية؛ لأنه لم يجد ما يدينه. لكن الواقعة لم تمر هكذا مرور الكرام، فيذكر تاريخ البطاركة أن عبدالعزيز قد أمر بكسر جميع الصلبان التي تعلو مباني الكنائس، وأمر بكتابة هذه العبارة: "محمد الرسول الكبير الذي لله، وعيسى أيضًا رسول الله، وأن الله لم يلد ولم يولد" على عدة رقع وأمر بوضعها على أبواب البِيَع بمصر والريف. يلاحظ هنا أن الكاتب يدرك الحدود الجغرافية الفاصلة بين النوبة والحبشة، وأنهما مملكتان منفصلتان، ويلاحظ كذلك أن ردة فعل عبد العزيز المبالغ فيها ترتبط بخوفه من نفوذ البطريرك القبطي في بدايات حكم العرب لمصر. فقد قيل إنّ أرض مصر قد اضطربت لفرط ردة فعل عبد العزيز، كما قيل إنه منع البطريرك من الصعود إلى القبلة، وربما كان المقصود منعه من الصلاة[21].

من حسن الطالع أن سيرة البطريرك إسحق قد وصلتنا في نسخة قبطية بحيرية مطولة[22]، تضم تفاصيل كثيرة عن حياته لم ترد في تاريخ البطاركة، والراجح أن محرري الكتاب عبر العصور لم يكن لهم اطلاع على هذه الوثيقة المهمة. تضيف

السيرة البحيرية تفاصيل كثيرة عن طفولة البطريرك إسحق ونشأته وكيفية توليه الكرسي المرقسي، أما فيما يتعلق بالنوبة، فالنص يعطي اسمين للمملكتين المتحاربتين هما ماكوريا وماوروتانيا[23]، والراجح أنهما يشيران إلى شمال وجنوب النوبة، وليس النوبة والحبشة[24]. كما تضيف أن البطريرك قد نجا من غضب عبد العزيز بواسطة معجزة مفادها أنه ذهب إلى عبد العزيز راكبًا دابة يقودها القديسان بطرس ومرقس الرسولان، وأن عبد العزيز قد رآهما وارتعب كثيرًا، حتى إنه قال للبطريرك: "قد رأيت رجلين يسيران معك، ويحيطان بك ولهم نور عظيم لم أرَ له مثيلًا قط. ولولا أنهما اختفيا، لكنت مت في التو من الخوف"[25]. وقد قادت المعجزة إلى إطلاق البطريرك حرًّا دون أذى. لا غرابة هنا في استخدام المعجزة لتبرير نجاة الأب البطريرك، فالتفسير الديني للأحداث التاريخية هو أمر رائج جدًّا في الكتابات التاريخية القبطية، كما أن سيرة البطريرك إسحق البحيرية قد أعدت لتلقى على أسماع المتابعين كعظة، وبالتالي يلزمها هذا النوع من المبالغات التي تأخذ أذن السامع وتملك عقله.

تأتي النوبة في كتاب تاريخ البطاركة مرة أخرى في زمن البطريرك خائيل الأول، السادس والأربعين في ترتيب بطاركة الإسكندرية، والذي تولى الكرسي المرقسي حوالي 743–767م. كان ملك النوبة في زمن هذا البطريرك يدعى "مرقوريوس"[26]، وكان يلقب بقسطنطين الجديد لكثرة أعماله الحسنة. رزقه الرب ولدًا، أسماه زكريا، فلما توفي الملك الأب، أبَى زكريا أن يكون ملكًا لأنه كان يصرف كل وقته في الصلوات والأصوام باحثًا عن خلاص نفسه. تولى المُلك أحد أقربائه ويدعى "سيمون"، وقد سلك سيمون مسلك مرقوريوس، ولمّا توفي سيمون تولى أحد رجالات القصر الحكم، وكان يدعى إبراهيم، ويبدو أنه لم يسلك في سيرة سابقيه، بل كان قاسيًا عربيدًا. حاول أسقف المدينة في ذلك الوقت الأنبا قرياقوس أن يرد الملك عن أفعاله القبيحة لكنه رفض. أراد

إبراهيم أن يتخلص من قرياقوس، فكتب للبطريرك خائيل يهدده بأنه إن لم يعزل قرياقوس عن الأسقفية، فإنه وكل سكان مدينته سوف يرتدون إلى الوثنية.

هنا يبدو لنا أن النوبة تظهر كجزء خالص من كنيسة الإسكندرية، الأسقف معيَّن من قبل بطريرك الإسكندرية ولا يستطيع أحد عزله حتى ملك النوبة ذاته. وحدثت مراسلات عدة بين الملك إبراهيم والبطريرك خائيل، في كل مرة يدّعي الملك على الأسقف قرياقوس تهمة مختلفة، وكلها زور وبهتان. وفي كل مرة يرد البطريرك الصبور بمحاولة إقناع الملك بقداسة الأسقف، مستخدمًا أسلوبَ محبٍّ رقيق. عندما أحس البطريرك خائيل أن الأمور قد وصلت إلى حد اللاعودة مع الملك، جمع مجمعًا في الإسكندرية لينظر الأساقفة في الأمر. وأُسقط في يدي البطريرك، فهو أمام خيارين، أحلاهما مر؛ إما أن يُعزل أسقف بريء، أو أن ترتد مدن كاملة إلى الوثنية تحت حكم ملك لا عقل له. توصل المجمع في البداية إلى أن يعتزل الأنبا قرياقوس الأسقفية ويذهب إلى دير من أديرة الإسكندرية، لكن الأسقف المظلوم لم يعجبه حكم المجمع، فتم إعطاؤه الحرية؛ أن يذهب إلى أيّ مكان يريد ليعتزل فيه، وقام المجمع بترسيم الشخص الذي أُرسل لهم من قبل الملك[27].

هنا يذكر كاتب تاريخ البطاركة أن رد السماء المعارض لحرم الأسقف القديس قد جاء مباشرًا ولحظيًّا، فقد كانت معلقة في وسط المجمع أيقونة للقديس يوحنا فم الذهب، والذي يصور بصورة شيخ وجنتيه بلا شَعْرِ لحية كما هو مظهر الأسقف القديس قرياقوس، هذه الصورة انحلَّ الحبل الذي يربطها بالحائط، وسقطت وغادرت المجمع كعلامة على غضب السماء على عزل الأسقف القديس[28]. وكلما قام رجال المجمع بإعادة الأيقونة لمكانها، سقطت مرة أخرى وغادرت المكان. ليس هذا فحسب بل إن العقوبة السماوية شملت الجميع، فقد امتنع سقوط المطر على بلاد النوبة حتى

يوم وفاة الأسقف المظلوم، الذي اعتزل في أحد أديرة بلاد النوبة حتى نياحته. كذلك هؤلاء الذين شهدوا ضده، أصابهم العمى[29]. يلاحظ هنا استمرار التفسير الديني للأحداث، كما هو معتاد في تاريخ البطاركة، وتشويق القارئ بذكر المعجزات والخوارق، لكن المؤلف لا يوجه اللوم بأي وجه لأعضاء المجمع وللأب البطريرك الذين خضعوا للسلطة السياسية، فعزلوا أسقفًا بريئًا ورسّموا أسقفًا على هوى الملك.

حدث بعد ذلك أن اعتقل عبد الملك صاحب مصر البطريرك خائيل الأول، فسيّر ملك النوبة جيشًا، تعداده بحسب تاريخ البطاركة مائة ألف من الجنود، ومائة ألف من الخيول، لتحرير البطريرك، ولمضايقة العرب الحاكمين لمصر الذين حاولوا مرات عديدة غزو بلاد النوبة. وفي طريقهم إلى داخل مصر، نهب الجنود النوبيون بعض القرى الجنوبية لأجل غذائهم وإطعام خيولهم، ولمّا سمع صاحب مصر بذلك، أفرج عن البطريرك خائيل، وطلب منه التوسط لدى ملك النوبة حتى يعود أدراجه[30].

والرواية على ما بها من مبالغة واضحة، وجدت طريقها إلى مصادر تاريخية عدة، فقد أورد أبو المكارم في تاريخ الكنائس والأديرة القصة ذاتها، وقد أضاف أبو المكارم تفاصيل إدارية عن النوبة، فذكر أن النوبة هي كرسي مارمرقس، وأن لديهم قداسًا روميًّا، وأن عدد ملوكهم ثلاثة عشرة، وكلهم تحت إمرة الملك الأكبر قرياقوس[31]. جدير بالذكر هنا أن تاريخ الكنائس والأديرة هو عمل طبوغرافي فريد، مُقسم إلى ثلاثة أجزاء تضم وصفًا للكنائس والأديرة في مناطق متعددة من الشرق الأوسط وأوروبا، والراجح أنه كتب ما بين الأعوام 1160–1349م، ومر بعدة مراحل في كتابته. وللإنصاف لا يمكننا نسبته لكاتب واحد، فاللغة المستخدمة والأسلوب تدلنا أن عددًا من الكتّاب قد تقاسموا كتابته، منهم أبو المكارم سعد الله ابن جرجس وأبو صالح الأرمني. واستخدم مؤلفو الكتاب عدة مصادر، منها ما هو قبطي، ومنها ما هو إسلامي في

إعدادهم للكتاب. ويمكن التعرف إليها حاليًّا من خلال الأبحاث الحديثة. وتعود أهمية هذا العمل إلى أن مؤلفيه قد اهتموا بذكر الأحداث التاريخية المتعلقة ببناء الأديرة والكنائس، الأمر الذي جعل من عملهم هذا عملاً تاريخيًا مثلما هو عمل في العمارة والآثار. وقد تضمن الكتاب إشارات مفصلة لرحلة العائلة المقدسة، وكذلك تفاصيل عن النزاعات القبطية الإسلامية، وقيام بعض الحكام المسلمين بتحويل الكنائس إلى مساجد عنوة، وما إلى ذلك من تفاصيل تتعلق بالإيمان القبطي، والهَرْطقات، وعلاقة ذلك ببناء الكنائس وغيرها[32].

والراجح أن "تاريخ الكنائس والأديرة" هو صدى لكتاب "تاريخ البطاركة"، وأن "تاريخ البطاركة" ذاته أحد مصادر كتابة "تاريخ الكنائس والأديرة"، لكن سعة اطلاع مؤلفي "تاريخ الكنائس والأديرة" واستخدامهم لعدد آخر مؤكد من المصادر يعطي لعملهم مصداقية عالية. على سبيل المثال يحدد يُوحنَّس دنهاير عددًا من المصادر اطلع عليها أصحاب "تاريخ الكنائس والاديرة" في كتابة عملهم المهم، منها تاريخ سعيد ابن بطريق، و"تاريخ الرسل والملوك" للطبري، و"فضائل مصر" للكندي، و"فتوح مصر" لابن عبد الحكم، وغيرها من المصادر التاريخية المهمة. لعل ذكرنا لهذه المصادر يعطي للقارئ انطباعًا عن أهمية العمل وعناء مؤلفيه في إعداده، وبالتالي مصداقيته المرتفعة[33].

جاء ذكر الرواية نفسها في تاريخ ابن خلدون، وقد غيّر ابن خلدون بعض الشيء في اسم حاكم مصر في ذلك الزمن، كما ذكر أن سبب سجن البطريرك هو طلب الحاكم المسلم منه مبلغًا ضخمًا من الأموال[34]. جدير بالذكر أن ابن خلدون المتوفى في 1406م قد انتهى من كتابة تاريخه حوالي عام 1370م، وربما قد يكون قد عاد لتنقيحه بنفسه بعد ذلك. كان تاريخ ابن خلدون يتضمن عمله الأهم "المقدمة"،

وإن كانت قد جرت العادة على طباعتها منفصلة؛ لما لها من أهمية قصوى. ويغطي تاريخ ابن خلدون فترات طويلة فيما قبل الإسلام، يبدأها بتاريخ اليهود كما دون في التوراة. ويعطي ابن خلدون أهمية كبيرة في تاريخه لحياة المسيح كما دونتها الأناجيل، كما يتناول تاريخ القبط بإسهاب، ولعل السنوات التي قضاها بمصر مكنته من القراءة الواسعة عن تاريخ مسيحيي مصر، وإن كان اختلاطه الشخصي بهم محل شك. وقد اعتمد ابن خلدون في تاريخه على عدد من المصادر التاريخية السابقة عليه كابن العميد والطبري[35].

وإن كان ابن خلدون قد اتبع منهجًا واضحًا في تاريخه، وفي نقد أعمال سابقيه الذين نقل عنهم، إلا أنه فيما يتعلق ببلاد النوبة وعلاقتها بالكنيسة القبطية، وتاريخ القبط بصورة عامة، قد سقط فيما يعرف بالمفارقة التاريخية Anachronism، وهي ظاهرة ليست غريبة عن مؤرخي العصور الوسطى، فيها يحدث خلط عبر الزمن فيما بين الأشخاص والأحداث والأفكار. وهو بدقة ما حدث في رصد ابن خلدون للواقعة السالفة، مع تغيير اسم الحاكم في مفارقة تاريخية واضحة، ثم تفسيره لسجن البطريرك بأن سببه الجزية الضخمة المطلوبة منه، وهو تفسير مستعار من زمن سابق أو لاحق لا فرق، لكن لا علاقة له بالواقعة محل الدراسة هنا.

الحقيقة أن هذه الواقعة نفسها كاشفة للكثير من الرسائل التي أراد كتاب "تاريخ البطاركة" توصيلها لجمهور القبط. منها أن البطريرك القبطي يتلقى الدعم من السماء دائمًا، ويجد طريقًا ما لينجو في كل الأحوال، ومن أصعب المواقف، فالبطريرك خائيل بالرغم من اشتراكه في عزل أسقف قديس، وغضب السماء لذلك، إلا أنّ البطريرك يُنقذ من السجن بواسطة ملك النوبة، الذي هو أحد خلفاء الملك الشرير الذي أطاعه البطريرك في عزل الأسقف قرياقوس القديس. وتبدو النوبة أيضًا وكأنها عصية طوال

الوقت على الحكام المسلمين لمصر، فهي لا تقاوم حكام مصر طوال الوقت فحسب، بل تتقدم لتهاجم الحدود المصرية متى أرادت. كذلك يبدو الفصل واضحًا بين السلطات المدنية والدينية، فالملك الشرير القاتل إبراهيم كان يمكنه التخلص من الأسقف قرياقوس بالعنف أو حتى تجاهله بالكلية، لكنه لا يفعل، بل يطلب إلى البطريرك القبطي عزله.

ويرد ذكر النوبة عرضًا في زمن البطريرك مرقس الثاني، البطريرك التاسع والأربعين في عداد البطاركة الأقباط، والذي تولى الكرسي المرقسي حوالي 799–819م. وفي زمانه مات الخليفة هارون الرشيد، ثم حدث صراع على الحكم بين ولديه الأمين والمأمون، وضعفت يد الحكام المسلمين في مصر، وقام الثوار في كل مكان بلا هدف، وفي هذه الفترة انقطعت طرق التجارة بين مصر والنوبة، وبدأ الغوغاء يهاجمون المسافرين وينهبونهم. ويبدو أن النوبة قد استغلت الفرصة وتوقفت عن سداد الضرائب الباهظة التي طالما فرضها عليها حكام مصر المسلمين[36].

في عهد البطريرك يوساب؛ الثاني والخمسين في عداد بطاركة القبط، والذي تولى الكرسي المرقسي حوالي 831–849م، تظهر النوبة –بحسب "تاريخ البطاركة"– وكأن لها أهمية ثانوية في اهتمامات الأب البطريرك، فيقول الكتاب إن البطريرك يوساب لمّا فرغ من مهامه قليلًا، التفت إلى النوبة وشئونها. وقد كانت رغبة الأب يوساب أن يحل السلام في بلاد النوبة لكي يستطيع تعمير البِيع هناك، وقد كان ملوك النوبة في حرب مع الملوك المسلمين، حكام مصر، مدة أربع عشرة سنة، وقد فاوضهم الحكام المسلمون أن يدفعوا بَقْط المدة كلها، ويحل السلام بينهم. وقد رأى البطريرك يوساب في هذا حلًا جيدًا لإحلال السلام، وأرسل لملك النوبة زكريا لكي يقنعه بذلك، ويتفق مع الحكام المسلمين. وفي خطابه هذا، ذكَّره بوقائع ثورة البشامرة ضد العرب، وكيف كان مصيرهم، وحذرهم منه[37]. أوفد زكريا ابنه وولي عرشه جرجه، لكي يشرح

للبطريرك صعوبة دفع بقط الأربعة عشرة سنة دفعةً واحدةً. نال جرجه بركات الأب البطريرك ثم سافر إلى بغداد للقاء خليفة المسلمين.

أكرم الخليفة وفادة جرجه على غير المتوقع، وأعفاه من البقط كله؛ لما رأى فيه من طاعة وتقدير لشخصه. كما زاد في كرمه الطائي، فمنح جرجه الذهب والفضة والملابس، وأرسله في حماية عسكره حتى لا يلاقيه مكروه في طريق العودة[38]. ويبدو أن المبالغة في وصف كرم الخليفة مع ابن ملك النوبة، الهدف منه إظهار البركات التي حلت عليه بعد مقابلته للبطريرك يوساب، يدعم ذلك ما تذكره بقية سيرة البطريرك من أنه كان ناجحًا في علاقاته الخارجية مع كنيسة أنطاكية وغيرها.

الرواية نفسها ترد في "تاريخ الكنائس والأديرة" المنسوب لأبي صالح الأرمني. وهي تعدل تعديلًا طفيفًا، فتذكر أن البقط لم يكن مالًا بل من الرقيق فحسب. هذه المخالفة تطرح سؤالًا آخلاقيًّا بخصوص البطريرك الذي رضي بتسديد البقط من الرقيق، وبالتالي تلقي بظلال من الشك على رواية كتاب "تاريخ الكنائس والأديرة". ويبرر أبو صالح كرم الخليفة مع ابن ملك النوبة بأن الخليفة قد أُعجب بطاعة جرجه لأبيه، وأنه قد قاسى الويلات في هذه الطرق الوعرة طاعةً لأبيه[39]. ويذكر تقي الدين المقريزي في "الخطط" الرواية نفسها بدرجة أشد من الحبكة الدرامية، حيث يصور حوارًا بين ملك النوبة الذي أسماه زكرياء بن يُحنَّس، وابنه. في هذا الحوار يتخذ الأب جانب المسالمة، بينما يصر الابن على العصيان والقتال، وفي النهاية يتفق الاثنان على سفر الابن إلى بغداد لملاقاة خليفة المسلمين. دراما المقريزي تمتد لوصف رحلة الابن من النوبة إلى بغداد، وانبهاره بالمدن وعظمة عمارتها وضخامة جيوشها، ولم ينس المقريزي أن يقول إن ابن ملك النوبة قدم للخليفة هدية قيمة. ويقدم المقريزي تفاصيل هدية الخليفة لجرجه، والتي أوردها "تاريخ البطاركة" من دون تفاصيل. يقول إن

الخليفة[40] أهداه بيتًا بالعراق وآخر بالجيزة بمصر وثالثًا ببني وائل، وأجرى له من ديوان مصر سبعمائة دينار، وفرسًا وسرجًا ولجامًا وسيفًا محلى وثوبًا مثقلًا وعمامة من الخز ... إلخ.

صاغ المقريزي (المتوفى في 1442م) النسخة الأولى من تاريخه المسمى "المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار" حوالي 1413م، وهناك نسخة أخرى منقحة تعود لحوالي 1428م. وهو عمل ذو طبيعة طبوغرافية يتناول مصر كلها، والقاهرة على وجه الخصوص. أعطى المقريزي للجزء المتعلق بالقبط وتاريخهم وآثارهم مساحة ليست بالهينة من عمله الموسوعي، وضمنه تفاصيل مطولة عن أصل القبط، وتاريخ دخولهم المسيحية، وتاريخهم بعد دخول الإسلام مصر. استخدم المقريزي عشرات المصادر لكتابة عمله المهم، بعضها بالتأكيد مفقود اليوم، وبعضها معروف مثل تاريخي المكين ابن العميد، وسعيد ابن البطريق، وغيرهما[41].

ويبدو أن كرم الخليفة مع ابن ملك النوبة له هدف استراتيجي هو كسب هذه المنطقة المهمة جغرافيًا جنوب مصر لصالح الخلافة الإسلامية، وربما اتخاذها مستقبلًا نقطة ارتكاز لأعمال أوسع في قلب أفريقيا لصالح الخلافة. كذلك الاستفادة برجال المنطقة المعروف عنهم خبرتهم الطويلة في القتال وشدة بأسهم في جانب جيوش الخلافة. أما تفسير كتاب "تاريخ الكنائس والأديرة" لكرم الخليفة، فيبدو أنه تفسير شخصي مبني على المبالغة في تقدير الخليفة لطاعة ابن الملك لأبيه، وهو تفسير مبني على العواطف الإنسانية أكثر منه تفسير سياسي، ويبدو القبول به أمرًا مستبعدًا. أما المقريزي فلا ندري من أين أتى بتفاصيل الهدية التي قدمها الخليفة لابن ملك النوبة، وربما كان ذلك يرجع إلى بعض المصادر التاريخية أو الوثائق الأصلية التي اطلع المقريزي عليها وهي مفقودة الآن. لكنه –بطبيعة الحال– أمر غير متعجب من

مؤرخ مسلم أن يمدح خليفة المسلمين على كرمه، وأبعد من كرمه رؤيته الاستراتيجية البعيدة وفطنته في الحكم. كما أن المقريزي كعادته يريد أن يضيف جديدًا –ولو هامشيًّا– على ما دوّنه سابقوه. أما تفاصيل رحلة ولي عرش النوبة لمقابلة الخليفة، وانبهاره بالعمران العظيم الذي للمسلمين، فلا شك أنه كان من المعرفة الشخصية للمقريزي بهذه الطرق التي ارتادها مرات كثر في رحلات للحج وللتجارة. كما أراد المقريزي تثبيت الرواية في ذهن القارئ بالاستفاضة في ذكر التناقض بين بدوية وتخلف بلاد النوبة في مقابل عمران بلاد المسلمين. وهذه النوعية من التفاصيل هي ميزة واضحة عند المقريزي ومعتادة في كل جوانب عمله الموسوعي المهم. وهو الأمر ذاته الذي ينطبق على صياغته لحوار ملك النوبة مع ابنه قبل قرار السفر.

واقعة أخرى من عهد البطريرك نفسه جديرة بالذكر هنا. عُرف عن البطريرك يوساب أنه امتلك عددًا كبيرًا من الغلمان لخدمته، جاءوه كهدايا من أماكن كثيرة من بينها بلاد النوبة، وأراد أحد قضاة الإسكندرية أن يستولي على عدد من هؤلاء الغلمان، فاتهم البطريرك أنه يستعبد هؤلاء الصبيان، وأنه يسعى لتنصيرهم، وبذلك يخالف أوامر عدة للحكام المسلمين. حاول البطريرك إقناع القاضي بأن هؤلاء الصبية ولدوا أحرارًا، وليسوا عبيدًا عنده، وأنهم من أسر مسيحية في النوبة وغيرها. أتى القاضي بالغلمان إلى ساحة القضاء وهددهم حتى دخل في الإسلام بعض منهم، فحزن قلب البطريرك جدًّا، وعرض على القاضي أن يدفع ثمنهم. وانتهت الواقعة إلى قسمة الغلمان ما بين البطريرك والقاضي[42].

في زمان البطريرك قزما؛ الثامن والخمسين في عداد البطاركة القبط، والذي تولى الكرسي المرقسي حوالي 920–932م، حدثت واقعة عجيبة في بلاد الحبشة. رسم البطريرك على بلاد الحبشة مطرانًا حكيمًا يدعى بطرس. وعندما حانت لحظة

وفاة ملك الحبشة، استدعى المطران وسلمه المملكة وابنيه ليختار منهما الصالح للحكم. ورأى المطران الحكيم أن الصغير أصلح من الكبير فولاه المملكة. بعد ذلك جاء راهب من دير أندونه[43] وطلب مالًا من المطران، ولمّا لم يجبه المطران لطلبه، زوّر خطابًا باسم البطريرك قزما يقول فيه إنه هو المطران المختار منه، وأن بطرس مطران مزيف. وذهب الراهب بالخطاب المزيف إلى الابن الأكبر للملك، وهيّجه على أخيه. واستعان الأخ الأكبر بالجيش، وعزل أخاه ونفاه، كما نفى المطران بطرس، وأجلس محله مينا الراهب المزور.

ولمّا علم البطريرك قزما بما حدث من وراء ظهره، كتب للملك يخبره بالحقيقة. فغضب الملك جدًّا وقتل المطران المزيف مينا، وأرسل مَنْ يبحث عن المطران بطرس. فاكتشف أنه مات في المنفى، فأمر بإحضار أحد تلاميذه ليرسَّم مكانه مطرانًا. ولمّا تعذر سفر تلميذ المطران بطرس إلى مصر ليرسم بيد الأب قزما، أمر الملك بتجليسه مطرانًا دون سيامة رسمية. وثار غضب البطريرك قزما، فلم يرسم للحبشة مطرانًا حتى نياحته، وقد سلك مسلكه خمسة من البطاركة التالين له[44].

بسبب هذه الأحداث حَلّت اللعنات الإلهية على بلاد الحبشة، واستمرت حتى زمان تولي البطريرك الأنبا فيلوثاوس؛ البطريرك الثالث والستين في عداد البطاركة القبط، والذي تولى الكرسي المرقسي حوالي 979–1003م. وفي زمان الأب فيلوثاوس هجمت ملكة بني الهموية[45] على بلاد الحبشة، ودمرت البِيع، فلم يجد ملك بلاد الحبشة مِن حَلٍّ إلا أن يكتب لملك النوبة ليطلب منه التوسط لدى بطريرك الإسكندرية حتى يسامحهم ويرسم لهم مطرانًا حتى يرتفع الغضب الإلهي عنهم. وتعاطف جرجس ملك النوبة مع أحوال بلاد الحبشة، وأنفذ رسله إلى الأنبا فيلوثاوس، الذي رسم لهم

مطرانًا من دَيْر أبو مقار يدعى دانيال. وما أن وطأت أقدام دانيال أرض الحبشة حتى سكت عنهم الغضب الإلهي، وانتهى خطر ملكة بني الهموية[46].

هذه الرواية تعكس رسالة مهمة أراد كُتّاب "تاريخ البطاركة" توصيلها لجمهور قرّاء الكتاب، وهي أن الغضب الإلهي على الخطاة يتخذ صورًا مختلفة، وأن الله يؤدب بقضيب الناس[47]. فها هو الله يُهيّج ملكة بني الهموية على ملك الحبشة لتأديبه، هذا الملك الذي تدخل فيما لا يعنيه بترسيم مطران غير شرعي، وهنا هي الخطيئة الرئيسية لهذا الملك مقابل قتل المطران المزور ونفي أخيه واستيلائه على الحكم. الرسالة هنا تقول إن خطأ الملك فيما يتعلق بالأمور الكنسية، وتحدي سلطة البطريرك المطلقة في ترسيم المطارنة، هو بالضرورة أكبر وأعظم من أخطائه المدنية في إدارة الدولة. كما أن هناك رسالة في خلفية المشهد عن العلاقة الطيبة بين ملك النوبة والبطريرك القبطي، الذي ما أن وصلته رسل ملك النوبة حتى أجابهم إلى مطالبهم. والجدير بالملاحظة هنا هو أن السيرة الذاتية للبطريرك ليست فوق الشبهات، فهو قد تقاضى المال لأجل قسمة الأساقفة، وكان له جماعة من الأصدقاء لا يرسم الأساقفة إلا بإذنهم. وقد ذُكر عنه أنه كان نَهِمًا محبًا للذيذ الطعام وكثيره، كما أنه كان محبًا للرفاهية والراحة[48]. وبالرغم من سوء سماته الشخصية إلا أن بركات السماء حلت على بلاد الحبشة بمجرد رضاه عنهم، وسيامة مطران عليهم. من هذا المنطلق يريد "تاريخ البطاركة" أن يقول إن البطريرك يتم الأسرار والسيامات المقدسة مهما كانت نقائصه الشخصية؛ لأن هذه هبة من السماء، لا لشخصه بل لرتبته العالية.

وشى رجل يدعى علي القفطي بمطران النوبة المدعو بُقْطُر، وقال لأمير الجيوش المسلم إن المطران قد هدم مسجدًا في النوبة. كانت هذه الوشاية في زمان البطريرك خرستوذولس، البطريرك السادس والستين في سلسلة بطاركة الإسكندرية

والذي اعتلى كرسي البابوية حوالي 1046–1077م. أرسل أمير الجيوش –الذي كان بالصعيد عندما أتته الوشاية– ابنه ليقبض على البطريرك خرستوذولس. وأرسل رجل يدعى حسام الدولة جوامرد ليحقق في واقعة هدم المسجد في النوبة. تأكد حسام الدولة من كذب القفطي، فأمر أمير الجيوش بالإفراج عن البطريرك وتكريمه وتبجيله. حكم على القفطي بالقتل بسبب وشايته، وعندما أخذ رأي البطريرك في قتله، رفض قتله، ولم يقترح أية عقوبة بديلة، لكن أمير الجيوش أمر بقتله[49].

توطدت العلاقة بين البابا خرستوذولس وأمير الجيوش بسبب حكمة البطريرك وجميل حديثه. ساعد البطريرك أمير الجيوش في القبض على أحد المناوئين له، والذي عاث فسادًا في صعيد مصر إبان وجود أمير الجيوش في الشام، وعندما علم بقدوم أمير الجيوش إلى مصر، فَرّ إلى النوبة. وأوفد البطريرك إلى ملك النوبة رسولًا ليطلب منه تسليم الهارب إلى رسول آخر مرسل من أمير الجيوش، وقد أجابه ملك النوبة إلى طلبه[50]. هذه الواقعة لها رواية شبيهة في تاريخ ابن الأثير،[51] كما أن أبا صالح يعيد قَصَّها نقلًا عن "تاريخ البطاركة" [52].

لا يحتل تاريخ القبط في العمل الموسوعي الضخم لابن الأثير "الكامل في التاريخ" مساحة كبيرة، ولكنه في تسجيله لتاريخ الإنسانية منذ الخلق حتى زمانه عرج على تاريخ الأقباط. وقد قسم التاريخ بالحول، ودرس كل سنة على حدة. وقد حاول بقدر المتاح في زمانه (توفي 1233م) أن يحلل الأحداث، وينقد مصادرها بحثًا عن الحقيقة[53]. وروايته لمساعدة البطريرك القبطي في القبض على أحد الفارين في النوبة جاءت عرضًا دونما تفاصيل، والراجح أن ابن الأثير لم يطلع على "تاريخ البطاركة"، وبالتالي يقوم هذا دليلًا على تداول الواقعة في مصادر تاريخية أخرى من تلك التي رجع لها ابن الأثير في كتابة تاريخه.

الواقعتان تعكسان التحسن الكبير الذي طرأ على العلاقات بين البطريرك القبطي والحكام المسلمين مع تولي الفاطميين حكم مصر. الواقعة الأولى هي من أندر المرات التي يشير فيها "تاريخ البطاركة" إلى عدالة حاكم مسلم، فهو يرسل من يحقق في واقعة هدم مسجد، ويجد أن البطريرك مظلوم فيرد له اعتباره، ويقتل الواشي – بالرغم من رفض البطريرك– للقتل. الواقعة الثانية، والتي تُليت مباشرة بعد الأولى، تعكس أن الكاتب يريد أن يقول إن البطريرك قد حفظ الجميل ورده لأمير الجيوش متى استطاع. بحكم التفسير الديني المعتاد للوقائع في كتاب "تاريخ البطاركة" فإن تحسن العلاقات مع البطريرك، واحترامه وتبجيله له انعكاسات مباشرة على خير مصر. يقول الكاتب نصًا: "تواتر الرخا في أيام أمير الجيوش، واستقامت الطرقات واتصل وصول القوافل إلى مصر من المشرق والمغرب وكل البلاد"[54].

حدث في زمن البطريرك كيرلس الثاني، البطريرك السابع والستين من البطاركة القبط، والذي تولى الكرسي المرقسي حوالي 1078–1092م، أن جذبت الحياة الرهبانية ملك النوبة؛ الملك سلمون[55] فاعتزل المُلْك وسلم الحكم لابنه جرجه، ومضى إلى وادٍ يعرف باسم أبو نفر واعتزل للترهب والصلاة. ويبدو أن ترهبه كان سيرًا على درب البطريرك كيرلس الذي ذكر عنه قبل هذه الواقعة مباشرةً أنه يريد الاعتزال ولا يستطيع لأنه مشغول بمسئوليات الكنيسة ومقابلات الحكام المدنيين. اعتزل الملك سلمون في منطقة يقول عنها "تاريخ البطاركة" إنها تبعد مسيرة عشرة أيام عن النوبة، وثلاثة أيام عن أسوان. يبدو أن اعتزال الملك قد شاع خبره، فلم يرض حاكم أسوان باعتزاله في منطقة صحراوية، بل نُقل إلى القاهرة حيث أقام مكرمًا حتى نياحته، ودفن في دير مارجرجس بالخندق[56]. والرواية نفسها مذكورة بكتاب "تاريخ الكنائس والأديرة"

مضافًا لها تفاصيل أخرى، من أهمها أن للملك سلمون مؤلفات باللغة النوبية[57]. والراجح أن "تاريخ الكنائس والأديرة" قد نقل الواقعة عن "تاريخ البطاركة" كما هي.

في عهد البطريرك كيرلس الثاني أيضًا تنيح ملك النوبة، وتولى بعده ابن أخته بحسب العادة المتبعة في النوبة آنذاك، وأرسل الملك الجديد باسيل ابن الملك لكي يقسمه البطريرك أسقفًا[58]. والحادثة نفسها يكررها أبو صالح في "تاريخ الكنائس والأديرة" نقلًا عن "تاريخ البطاركة"، ويبدو أن لغة "تاريخ البطاركة" المختصرة لم تعجب كاتب "تاريخ الكنائس والأديرة"، فقرر أن يقدم للواقعة تفسيرًا مفصلًا ويوضح كيفية ولاية العرش في النوبة. فإن مات ملك، وكان له ولد وابن أخت، كانت ولاية العرش لابن الأخت، بينما يتولى ابن الملك عرش أبيه مباشرة في حالة انعدام ابن الأخت الذكر.[59] وقد خلا كتاب "تاريخ البطاركة" من أيّ ذكر لبلاد النوبة بعد وفاة البطريرك كيرلس الثاني.

لم يك الموقع الجغرافي للنوبة محل اهتمام كُتّاب "تاريخ البطاركة" أبدًا، بل بدا أحيانًا أن بعضهم يتصورها على غير حقيقتها من حيث بعدها عن مصر. مَيَّز "تاريخ البطاركة" بين النوبة والحبشة، وأدرك كُتّابه أنهما بلدان كبيرتان بعيدتان، وكذلك مختلفتان لغةً وإدارةً، وإنهما طوال الوقت امتداد كبير ومهم للمسيحية، وللكرازة المرقسية إلى الجنوب من مصر. وبرغم من أنهما تدينان بالمسيحية، إلا أن الخلافات بينهما قد تقع نظرًا لخلافات دنيوية. لقد بدت النوبة في كتاب "تاريخ البطاركة" وكأنها إيبارشية خاضعة بالكلية لكنيسة الإسكندرية. تم تصوير النوبة على أنها حصن عصي على الحكام المسلمين، ولم يك البطريرك القبطي بمدِّعم لتمرد النوبة على الحكام المسلمين أبدًا. ويظهر البطريرك القبطي على أنه داعية استسلام، فمتى طلب الحكام مالًا كان رأيه أن يُدفع، ومتى طلبوا رقيقًا، كان له الرأي نفسه. والأكثر من ذلك أن البطريرك

القبطي قد ذكر لملك النوبة مرة أن عليه دفع البقط للحكام المسلمين حتى لا تكون عاقبته كعاقبة البشامرة، حيث اتخذ البشامرة في عدم طاعتهم للكنيسة مضربًا للأمثال. بدا البطريرك أحيانًا كأنه حمامة السلام بين الحكام المسلمين في مصر وبلاد النوبة.

كانت سيامة مطران أو أسقف النوبة مهمة البطريرك القبطي دومًا. وفي أغلب الأحيان كانت مهمة اختياره هي مسئولية البطريرك، وأحيانًا كان البطريرك يرسم من يبعث إليه من النوبة. ذكر "تاريخ البطاركة" في غير مرة أن المطران المرسوم للنوبة كان مصريًّا، ولم يذكر أبدًا ما مدى أهليته ليتولى المسئولية الروحية في بلاد تختلف عن بلاده في كل شيء، فقد يكفيه أنه مرسل من بطريرك الإسكندرية، فهذا مؤهِّل كافٍ له. لم يرد أبدًا أن سافر بطريرك الإسكندرية إلى النوبة لتجليس مطرانها، أو حتى لرعاية شئونها. كان الأمر دائمًا مقتصرًا على الرسل والمراسلات، حتى إن البعض قد استغل هذه المراسلات لتجليس مطران مزور. كانت النوبة تأتي في الأهمية التالية لبطريرك الإسكندرية بعد مصر، فمتى انتهى من مهامه بمصر–وهي مهام لا تنتهي أبدًا– التفت إلى شئونها.

بطبيعة الحال فإن تمحور كتاب "تاريخ البطاركة" حول السيرة الذاتية للبطريرك جعل البطريرك الإسكندري يبدو وكأنه محور الأحداث في الكون كله. متى انصلحت علاقاته بالحكام المسلمين، انصلح شأن البلاد، وعم الخير، واستقرت الأمور للحكام المسلمين، والعكس بالعكس. الأمر ذاته في علاقاته بالنوبة والحبشة، إن خالفوه، توقف المطر عنهم، وعَمَّ الجدب، وبدأت الحروب والانقسامات. البطريرك القبطي دائمًا هو الذي يمنح البركة للجميع، حتى وإن وصفه الكاتب نفسه بالسيمونية وبنقائص عدة في شخصه، لكنه لم يزل محرك الأحداث الأهم، والرجل الذي يحمل بركات السماء. وهو ينجو من مصاعبه كافة. وتبدو السماء والأرض مسخرتين لصالحه. أحيانًا ينجو بسبب

أمانة وعدالة أمير الجيوش المسلم، وأحيانًا ينجو بمعجزة يظهر له فيها اثنان من رسل المسيح. في كل الأحوال هو ناجٍ، مما يجعلك تتوقع بعض الأحداث قبل قراءتها.

إذن فرسالة كُتّاب "تاريخ البطاركة" واضحة بما فيه الكفاية. هم يُعَلِّمون بأن الأب البطريرك له سلطة مطلقة يأخذها من السماء. بهذه السلطة فإن مَنْ غضب عليه البطريرك، غضبت عليه السماء، ومَنْ فعل ما أمره به البطريرك، حلت عليه بركات السماء، بما في ذلك إيبارشية النوبة البعيدة التي لم تطأ قدما البطريرك أرضها أبدًا. والاحترام الواجب للبطريرك هو احترام لمكانته في الكنيسة، وللمهام الجسام المنوطة به، بعيدًا عن سماته الشخصية، سلبيةً كانت أم إيجابية. البطريرك يفهم المسيحية على أنها بمعزل عن تصريف أمور الدنيا. الخضوع للحكام المسلمين، ودفع الضرائب الباهظة، وعدم المقاومة هو جزء من أصول المسيحية كما يقدمها "تاريخ البطاركة". دعم الإيبارشيات الثائرة ضد الحكم الإسلامي ليس من مهام البطريرك، بل أحيانًا كان يلعب دور المناهض لدفاع النوبيين عن بلادهم. النوبة جزء من الكنيسة القبطية، لكنها لا تتبع النهج السياسي للقبط في الخضوع للحكام المسلمين. وقد حقق النوبيون نجاحات كثيرة في إدارة بلادهم بمعزل عن إدارة الكنيسة القبطية.

الحواشي :

[1] نتوجه بالشكر للأب/ وديع عوض الفرنسيسكاني على ما قدمه لنا من مقالات مهمة.

[2] عبدالمنعم أبو بكر، بلاد النوبة، (القاهرة، 1962) 9-10.

[3] S. Moawad, 'Coptic Historiography', in: G. Gabra, *Coptic Civilization: Two Thousands Years of Christianity in Egypt*, (Cairo, 2014), 11-12.

[4] عن نشر ودراسة هذه الشذرات المهمة، راجع:

T. Orlandi, *Storia della Chiesa di Alessandria*, 2 vols., (Milan, 1968-1970) ; D. Johnson, *Coptic Sources of the History of the Patriarchs of Alexandria*, (PhD diss., Catholic University of America, Washington, D.C., 1974); D. Johnson, 'Further Fragments of a Coptic History of the Church: Cambridge OR. 1699 R.': *Enchoria* 6 (1976) 7-17.

[5] حفظت لنا القبطية أعمال اثنين من المجامع المسكونية هما: مجمع نيقية المسكوني المنعقد عام 325م، ويمكن مراجعة أعماله القبطية في:

E. Revillout, *Le concile de Nicée d'apres les Textes coptes et les diverses collections canoniques*, (Paris, 1881) ; F. Haase, *Die koptischen Quellen zum Konzil von Nicäa*, (Paderborn, 1920).

ومجمع أفسس المسكوني المنعقد عام 431م، ويمكن مراجعة أعماله القبطية في:

U. Bourianr, *La bibliothèque du Deir-Anba Shenoudi, deuxième partie. Actes du concile d'Éphèse*, Mémoires publiés par les membres de la Mission Archéologique Française au Caire 8, (Paris, 1892) ; W. Kraatz, Koptische Akten zum ephesinischen Konzil vom Jahr 431, Texte und Unter-suchungen zur Geschichte der altchristlichen Literatur 11,2, (Leipzig, 1904).

[6] يوحنا النقيوسي هو أسقف نقيوس بدلتا مصر، وقد عاصر أزمنة بطاركة ثلاثة هم يوحنا الثالث، وإسحق، وسيمون الأول (677-701)، وقد كان يترأس على عدد من الأديرة القبطية، وقد عُزل من مهام رئاسة الأديرة بعد أن اتهم بالمغالاة في معاقبة راهب. كتاب تاريخ النقيوسي يتضمن كل التاريخ منذ بدء الخليقة حتى دخول العرب مصر، وإن كان يتجاوز عن غزو الفرس لمصر. الكتاب له أهمية متفردة لأنه يسجل بعض أحداث دخول العرب مصر بكثير من التفصيل من رجل عاش هذا الزمان ورأى التفاصيل بعينيه. مشكلة تاريخ النقيوسي أن الرجل يكتب كأسقف مخلص لكنيسته وليس كمؤرخ، ويقدم تفسيرًا عقيديًا لكل أحداثه. ولم تزل اللغة الأصلية التي كتب بها هذا العمل محل جدل في الأوساط البحثية، وقد وصلنا في نسخة جعزية مأخوذة بدورها من نسخة عربية قديمة، راجع النص مع ترجمة فرنسية في:

H. Zotenberg, Chronique de Jean, Évêque de Nikiou, in: *Notices et Extraits des Manuscrits de la Bibliothèque Nationale Paris 24* (1883), 125-608.

وترجمة إنجليزية في:

R. H. Charles, *The Chronicle of John (c. 690 A. D.) Coptic Bishop of Nikiu*, Text and Translation Society series 3, (London, 1916).

وباللغة العربية، راجع:

عمر صابر عبد الجليل، *تاريخ مصر ليوحنا النقيوسي: رؤية قبطية للفتح العربي*، (القاهرة، 2009).

[7] لم يزل هذا العمل التاريخي المهم بلا طبعة نقدية أكاديمية، عن العمل ومؤلفه راجع:

A. Sidarus, Ibn ar-Rāhibs Leben und Werk. Ein koptisch-arabischer Enzyklopädist des 7./13. Jahrhunderts, Islamkundliche Untersuchungen 36 (Freiburg, 1975).

[8] S. Moawad, 'Al-Makīn Jirjis ibn al-Amīd (the elder)', in D. Thomas et al. (eds.), *Christian-Muslim Relations: A Bibliographical History*, Vol. 4 (1200-1350), (Leiden, 2012) 566-571.

[9] S. Moawad, 'Yūsāb of Fuwwa', in D. Thomas et al. (eds.), *Christian-Muslim Relations: A Bibliographical History*, Vol. 4 (1200-1350), (Leiden, 2012) 487-490.

[10] B. T. A. Evetts, *The Churches and Monasteries of Egypt and Some Neighboring Countries Attributed to Abû Ṣaliḥ, the Armenian*, (Oxford, 1895) ;

صموئيل السرياني، *تاريخ الكنائس والأديرة في القرن الثاني عشر الميلادي لأبي المكارم، والذي نسب خطأً لأبي صالح الأرمني*، أربعة أجزاء، (القاهرة، 1998-2000).

[11] من السير الذاتية التي وصلتنا منفردة لأحد الآباء البطاركة، سيرة البابا إسحق، الحادي والأربعين في ترتيب بطاركة الإسكندرية، راجع:
E. Porcher, 'Vie d'Isaac, patriarche d'Alexandrie de 686 à 689', *Patrologia Orientalis* 11, (Paris, 1915), 300–390.
كذلك من الأعمال المهمة تاريخيًّا، ما يعرف بالتراث الباخومي، والذي يشمل سيرة الأنبا باخوميوس مؤسس الرهبنة الديرية في صعيد مصر، وكذلك سير تلاميذه، وأهم ما خلفوه من تعاليم رهبانية، راجع:
A. Veilleux, *Pachomian Koinonia*, 3 vols., *Cistercian Studies Series* 45–47, (Michigan, 1980-1982).
وكذلك يجب أخذ التراث الأدبي للأنبا شنودة الأتريبي، وسيرة حياته ضمن هذه الأعمال المهمة كمصادر تاريخية، راجع:
S. Emmel, *Shenoute's Literary Corpus*, 2 vols., Corpus Scriptorum Christianorum Orientalium 599–600, Subsidia 111–112, (Louvain, 2004) ; N. Lubomierski, Die Vita Sinuthii: Form- und Überlieferungsgeschichte der hagiographischen Texte über Schenuteden Archimandriten, Studien und Texte zu Antike und Christentum 45, (Tübingen, 2007).

[12] عن المؤلفين والمحررين الذين اشتركوا في صياغة كتاب تاريخ البطاركة، راجع: وديع الفرنسيسكاني، 'مؤلفو سير البيعة من سير البيعة'، *صديق الكاهن* 4، (أكتوبر 2005)، 273-276، 1، (يناير 2006)، 9-19، 2، (أبريل 2006)، 91-101، 3، (يوليو 2006)، 171-179، 4، (أكتوبر 2006)، 247-260.

[13] عن الأصول اليونانية والقبطية المحتملة لبعض سير تاريخ البطاركة، راجع: وديع الفرنسيسكاني، في صديق الكاهن 4، (أكتوبر 2005)، 270-273.

[14] عن الدراسات المتعددة التي تناولت متن الكتاب، راجع: وديع الفرنسيسكاني، *صديق الكاهن* 1، (يناير 2005)، 9-17.

[15] عن الطبعات المختلفة لكتاب تاريخ البطاركة، ونقدها، راجع: وديع الفرنسيسكاني، *صديق الكاهن* 2، (أبريل 2005)، 88-94 ؛ صموئيل معوض، *إطلالات على تراث الأدب القبطي*، (القاهرة، 2013)، 474-476. في هذا البحث، سيذكر الباحثان الطبعة المستخدمة عند كل اقتباس.

[16] L. Atiya, *An Index to The History of the Patriarchs of the Coptic Church*, (Utah, 2010).

[17] J. van der Vliet, 'Contested Frontiers: Southern Egypt and Northern Nubia, AD 300-1500: The Evidence of the Inscriptions', in G. Gabra and H. Takla, *Christianity and Monasticism in Aswan and Nubia*, (Cairo, 2013), 63-77.

[18] الخمس مدن المقصودة هي تلك المعروفة باسم 'الخمس مدن الغربية'، وهي القيروان، وبرنيق، وبرقة، طوشيرا، وأبولنيا. عن هذه المدن وكرازة مار مرقس فيها راجع، شنودة الثالث (البابا)، *ناظر الإله الإنجيلي مرقس الرسول القديس والشهيد*، (القاهرة، 1968)، 43-51.

[19] Ch. Seybold, Severus ben el Moqaffa: Historia Patriarcharum Alexandrinorum, Corpus Scriptorum Christianorum Orientalium 52, Scriptores Arabici 8, (Paris, 1904) 1 ; E. Evetts, History of the Patriarchs of the Coptic Church of Alexandria I: Saint Mark to Theonas (300), Patrologia Orientalis 1 (Paris, 1907) 105.

[20] Evetts, History of the Patriarchs I, 141-148.

[21] Seybold, Historia Patriarcharum Alexandrinorum, 131; E. Evetts, History of the Patriarchs of the Coptic Church of Alexandria III: Agatho to Michael I (766), Patrologia Orientalis 5 (Paris, 1910) 24-25; Ch. Seybold, Severus ibn al Muqaffaʿ, Alexandrinische Patriarchengeschichte von S. Marcus bis Michael I 61–767 nach der ältesten 1266 geschriebenen Hamburger Handschrift, Veröffentlichungen aus der Hamburger Stadtbibliothek 3, (Hamburg, 1912) 121.
قام الأخ وديع الفرنسيسكاني بتجميع النصوص التي تتناول أثيوبيا والنوبة من كتاب "تاريخ البطاركة"، ونشرها دون تعليق أو دراسة، ولم يعرف الباحثان بعمله هذا حتى وقت إعداد المسودة الأولى من هذا البحث، راجع:
A. Wadi, 'Testi arabi editi ed inediti sull'Etiopica e la Nubia: prima parte: secoli VII-XVIII', SOC Collectanea 43 (2010), 189-273.

[22] وصلتنا هذه السيرة في مخطوط وحيد من دير أبو مقار بوادي النطرون، ومدونها هو الأنبا مينا أسقف بشادي، وهو أحد شهود العيان في السيرة، بل وأحد أبطالها، مما يعطى السيرة مصداقية عالية. عن هذه السيرة راجع هامش 11 بعاليه، وكذلك صموئيل معوض، *إطلالات*، 379-412، وأيضًا يوسف حبيب، *البطريرك القديس الأنبا إسحق*، (الإسكندرية، 1966)، وأيضًا

É. Amélineau, *Histoire du patriarche copte Isaac, Bulletin de Correspondance Africaine 2*, (Paris, 1890).

[23] عن هاتين المدينتين ومحاولة تحديد موقعهما الجغرافي بدقة، راجع:
D. Bell, Mena of Nikiou: *The Life of Isaac of Alexandria and the Martyrdom of Saint Macarius*, (Kalamazoo, 1988), 94, n. 132.

[24] للمزيد عن ذلك، راجع:
S. C. Munro-Hay, *Ethiopia and Alexandria: The Metropolitan Episcopacy of Ethiopia*, (Wiesbaden, 1997) 1131-114, n. 311.

[25] صموئيل معوض، *إطلالات*، 408-411.

[26] تختلف المخطوطات في مقر الملك، بعضها يذكر أن مقر الملك دنقلا، والبعض الآخر يذكر يوقانيا. راجع هامش 25.

[27] تختلف المخطوطات في اسم الشخص المرسل من الملك، بعضها يسميه بولس، وبعضها يسميه يؤنس، راجع هامش 25.

[28] عن تحقيق هذه الواقعة، راجع مشاركة يوحنا نسيم يوسف في أعمال هذا المؤتمر، والتي يعلق فيها على طريقة تصوير يوحنا فم الذهب في الأيقونات.

[29] Seybold, Historia Patriarcharum Alexandrinorum, 183-186 ; E. Evetts, History of the Patriarchs of the Coptic Church of Alexandria III, 140-146 ; Seybold, Severus ibn al Muqaffa', 176-178.

[30] عن تحقيق هذه الواقعة، راجع: Munro-Hay, *Ethiopia and Alexandria*, 118-119.

[31] صموئيل السرياني، *تاريخ الكنائس*، ج 2، 181-184.

[32] U. Zanetti, 'Abu l-Makarim et Abu Salih', *BSAC* 34 (1995) 100-115.

[33] J. den Heijer, 'Coptic Historiography in the Fāṭimid, Ayyūbid and Early Mamlūk Periods', *Medieval Encounters* 2 (1996) 77-81.

[34] عبدالرحمن ابن خلدون، *تاريخ ابن خلدون المعروف باسم العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر*، تحقيق: خليل شحادة، ج 2، (بيروت، 2001) 471.

[35] M. Whittimgham, 'Ibn Khaldun', in D. Thomas et al. (eds.), *Christian-Muslim Relations: A Bibliographical History*, Vol. 5 (1350-1500), (Leiden, 2012) 300-308.

[36] Seybold, *Historia Patriarcharum Alexandrinorum*, 248.

[37] عن البشامرة وثورتهم ضد الحكم الإسلامي في مصر، راجع:
G. Gabra, 'The Revolts of the Bashmuric Copts in the Eighth and Ninth Centuries' in *Die koptische Kirche in den Ersten drie islamischen Jahrhunderten*, (Halle, 2003) 111-119.

[38] Seybold, *Historia Patriarcharum Alexandrinorum*, 282-284 ; E. Evetts, History of the Patriarchs of the Coptic Church of Alexandria IV: Mennas I to Joseph (849), *Patrologia Orientalis* 10 (Paris, 1915) 503-508.

[39] صموئيل السرياني، *تاريخ الكنائس*، ج 2، 181-182.

[40] تقي الدين المقريزي، *المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقريزية*، تحقيق: محمد زينهم، ومديحة الشرقاوي، ج1، (القاهرة، 1998) 563-564.

[41] F. Bauden, 'Al-Maqrizi' in D. Thomas et al. (eds.), *Christian-Muslim Relations: A Bibliographical History*, Vol. 5 (1350-1500), (Leiden, 2012) 380-395, esp. 386-390.

[42] Seybold, *Historia Patriarcharum Alexandrinorum*, 292-293 ; E. Evetts, History of the Patriarchs of the Coptic Church of Alexandria IV: Mennas I to Joseph (849), *Patrologia Orientalis 10* (Paris, 1915) 527-529.

[43] الراجح أنه دير الأنبا أنطونيوس بصحراء مصر الشرقية.

[44] يسى عبدالمسيح وآخرون، *تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية المعروف بسير البيعة المقدسة لساويرس بن المقفع أسقف الأشمونين، مج 2، ج 2: من البطريرك خاييل الثالث إلى البطريرك شنودة الثاني، (880-1046)*، (القاهرة، 1948) 80-82.

[45] عن هذه الملكة، راجع: Munro-Hay, *Ethiopia and Alexandria*, p. 134-135.

[46] يسى عبد المسيح وآخرون، *تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية*، مج 2، ج 2، 113-114.

[47] راجع 2 صم 7: 14.

[48] يسى عبد المسيح وآخرون، *تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية*، مج 2، ج 2، 100، 113.

[49] يسى عبد المسيح وآخرون، *تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية المعروف بسير البيعة المقدسة لساويرس بن المقفع أسقف الأشمونين، مج 2، جـ 3: من البطريرك خريسطودلوس إلى البطريرك ميخائيل (1046-1102)*، (القاهرة، 1959)204-205.

[50] يسى عبد المسيح وآخرون، *تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية*، مج 2، جـ 3، 205.

[51] ابن الأثير، *الكامل في التاريخ*، تحقيق: أبي الفداء عبد الله القاضي، جـ 3، (بيروت، 1987) 197.

[52] صموئيل السرياني، *تاريخ الكنائس*، جـ 2، 197.

[53] F. Rosenthal, 'Ibn Al-Athir', in P. Bearman et al (eds.), *Encyclopaedia of Islam*, 2nd ed. Brill On Line (2015).

[54] يسى عبد المسيح وآخرون، *تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية*، مج 2، جـ 3، 205-206.

[55] لتفاصيل أخرى عن حياة هذا الملك، راجع مشاركة إسحق إبراهيم عجبان في أعمال هذا المؤتمر.

[56] يسى عبد المسيح وآخرون، *تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية*، مج 2، جـ 3، 210-211.

[57] صموئيل السرياني، *تاريخ الكنائس*، جـ 2، 183.

[58] يسى عبد المسيح وآخرون، *تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية*، مج 2، جـ 3، 222.

[59] صموئيل السرياني، *تاريخ الكنائس*، جـ 2، 184.